صديقي الكاظمي

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

قرأت في الرسالة (عدد ٩٦) نعيَ شاعر العرب الأكبر الشيخ عبد المحسن الكاظمي رحمه الله . فألمّتْ لفقده ، وتذكرت سابق عهده ، وقديم ودّه

وقد ذكر ناعيه من خبره : (انه لاذ بكنف الإمام محمد عبده الذي ظاهر نعمه عليه . وانه نكد عيشه بعد الإمام ، فرضي بالكفاف من الرزق)

فرأيتُ خدمةً للتاريخ ، وتوفيةً لحق الصديق ، وتنويراً لسيرة حياته — أن أضيف الى الجملة المذكورة ماله اتصال بها ، أو هو كالشرح يعلّق عليها

عرفت الشيخ عبد المحسن في إدارة (المؤيد) لأول عهدي بالتحرير فيه . وهناك توثّقت بيني وبينه عُرى المودة ، وأخذت أعرف من دخيلة أمره ما لا يعرفه سواي . وكان ذلك بعد وفاة أستاذنا الأمام بسنةٍ ونيف

ومما أخبرني به أن الامام رحمه الله كان يتعهده في آخر كل شهر بعشرة جنيهات : يودعها غلافاً ثم تسلّم اليه في داره من دون أن يشعر بما في الغلاف أحد . وبعد وفاة الامام لم يجد مندوحةً عن السعي لدى الخديو في أن يكون له مرتب شهري من الأوقاف . فتوسط في هذا الأمر الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد . فكان الشيخ يراجع الخديو في تقرير الراتب ، والخديو يأبى — كلما رُوجع بشأنه — إلا الرضخ له من مال الأوقاف بنحو خمسين جنيهاً ؛ وكنت أذهب مع الشيخ عبد المحسن الى الديوان فيقبضها . وقد تكررت هذه المعاملة المرة بعد المرة . والشيخ عبد المحسن في كل مرة يُظهر التأفّف من تناوله المعونة على هذه الصورة التي ما كان يراها تتّفق مع كرامته وإباء نفسه . وكان يلحّ على الشيخ علي : تارةً بنفسه ، وطوراً بواسطتي — أن يكلم الخديو في تعيين راتبٍ شهريٍّ مقطوع : (عشرة جنيهات فقط) يُريحه بها من عناء التوسّط ومكابدة المعاملات الديوانية

وان انتساب الشيخ الكاظمي الى الإمام المفتي إن كان من شأنه أن يحدث فتوراً نحوه في نفس الخديو ، فما كان قط ليحدث مثلَ هذا الفتور في نفس الشيخ علي يوسف . فكنا ننزّه الشيخ علياً عن وصمة الفتور ، لكننا كنا واقفين وقفة الإيجاس ، من حالة الخديو عباس

ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعاً ، فكلفني أن آخذ من الشيخ علي وعداً بانجاز المسألة مع الخديو : إما سلباً يُريح النفس ، أو إيجاباً يزيح العلّة

فتركت الشيخ عبد المحسن في غرفة التحرير ، ودخلت على الشيخ علي ، وبلغته الرسالة ، وكان يصحح مقالةً للطبعْ . فترك القلم من يده ، وتنفس الصعداء ثم قال : ماذا أصنع يا أستاذ ؟ أنهيتُ القضيةَ أمس مع الخديو ، ووعد وعداً أكيداً باصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له وخرجت من عنده . لكنني لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض الناس (ولم يسمّه لي) فقال للخديو : رأيتُ فلاناً خارجاً من عندك ، فماذا يبغي ؟ قال : قررنا راتباً للشيخ عبد المحسن الكاظمي . قال : أنسيت أنه شاعر المفتي ، وقد قال فيه من الشعر كذا وعرّض فيك بكذا وكذا ؟

قال الشيخ علي : فما كان من الخديو إلا الشحّ برفده ، والنكول عن وعده

ويصبح أعوانه ، رمماً بالية ، في حفر خالية ، وسيبقى الله ، وسينصر دينه ، ويؤيد حزبه ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

* * *

أيها « الشريف عدنان » ! لا تفتر ، قد ورثنا القصر ، وورثت القبر ، وهدمنا مابنيت ، وبنينا ماهدمت . . . وماهدمت إذ هدمت ، إلا مجدك في التاريخ ، وأجرك في الآخرة . . .

مكة المكرمة — علي الطنطاوي

فلما وعيت هذا رجعت الى الشيخ الكاظمى ، فأخبرته الخبر ، فتأرجحّ التأثر ، وقال لى : أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا . قال : هو أحمد شوقى

وكنت الى ذلك الحين لم أعرف سعادة أحمد شوقى بك رحمه الله ، ولا اجتمعت به ، وإنما لقيته بعد ذلك فى إدارة المؤيد وقد طلب من الشيخ على أن يرانى فتلاقينا وتعارفنا

ثم قال لى الشيخ عبد المحسن : وما الحيلة الآن يا أستاذ ؟ قلت : تحسين العلاقة مع أحمد شوقى بك ، ففارقته على نية اللقاء فى وقت نذهب فيه إلى (كرمة ابن هانئ) ، وكانت الكرمة بنيت ، حديثاً فذهبنا اليها وأرسل الشيخ عبد المحسن بطاقته الى البك ، فأجيب بأنه خرج ، أما الشيخ عبد المحسن فقد أقسم أنه لم يخرج ، وإنما أراد ألا يقابله

ومن ذلك الحين يئس من الخديو والراتب . وفوض أمره الى الله . ثم لما اشتد به المرض ، ولازم داره فى (درب الكحكيين) جعلت أتردد اليه فيها ، وكنا نقضى ساعات فى الحديث ورواية الشعر ومطارحة الأدب وأخبار الأدباء ، وخاصة أدباء العراق من الشيعة ، وقد لخصت بعض أحاديثه عنهم فى أمليّة العدد الصادر فى ١ يوليو سنة ١٩٠٧ من (أمالى الأدب) التى كنت أنشرها فى (المؤيد) من وقت الى آخر

وكان الشيخ عبد المحسن يخص باعجابه من بين شعراء العراق (ابراهيم الطباطبائى النجفى) الذى جمع بين جودة الشعر وحسن الانشاد وفخامة الصوت ، وهو الذى يقول فى صغيريه حسن ومحمد من قصيدة :

(أما وضوء الأبيضين لأنما قمرا سعودى فى الليالى السود)
(ما أنتما إلا كقرطى غادة يتذبذبان على خدود الخود)

وتأخرت عن زيارة (الكاظمى) أياماً فكتب إلىّ بهذه الأبيات :

(يامن تخيّرته دون الرفاق أخاً ألقى به عاديات الدهر والأزما)
(عدمتنفاً كاد يبلى جسمه سقم لعل قربك منه يبعد السقما)
(إذا ألمّت به غماء جانحة فنور وجهك عنه يكشف الغما)
(كم منة لك طول الدهر فى عنقى مازلت أذكرها وأشكر الرحما)

وقوله (الأزما) بكسر الهمزة وفتح الزاى جمع أزمة بمعنى الشدة والضيق ، وهو جمع نادر . ومنه قولهم فى جمع (بَدْرة) (بِدرّ)

ولم آسف على شىء أسفى على خبرين كان حدثنى بهما فلم أستقص تدوينهما فى مذكراتى عنه

(الأول) ما وصفه لى من نشأته الشعرية تحت إشراف أخيه الأكبر ، وكانت دار أخيه (فى بغداد أو الكاظمية) مثابة لشعراء الشيعة وأدبائهم . فكان الكاظمى الحدث يطارحهم الأدب ويسابقهم إلى قرض الشعر ، وكان أحياناً يجيد إجادة يعجب بها القوم ويهتز لها أخوه طرباً وسروراً . وأنشدنى قطعاً من شعره قالها لمناسبات عرضت فى تلك الاجتماعات فاتنى تدوينها مع المناسبات التى قيلت فيها

(الثانى) ما وصفه لى من إلحاح الفاقة عليه فى بعض الأيام حتى أنه سأل تاجر الدجاج الذى كان يبتاع من دجاجه أنْ يصف له طريقته فى تفريخها وتغذيتها والقيام عليها ليعتاش هو من وراء ذلك . فوصفها الرجل له . وحاول أن يجربها ، ففعل . وأصبح عنده ألوف من الفراريج . وكان يعتنى بها ويطعمها الأرز ، لكنه لم ينجح فى تجربته ، وكانت الخسارة عليه عظيمة . قال : وما كان يخطر لى قط أن الكتاكيت سريعة العطب ، رقيقة المزاج إلى هذا الحدّ . وأنها إذا لم يتدبر صاحبها أمرها بانتباه وفرط حيطة ، ومراعاة الأصول فى تغذيتها وتدفئتها لا يبق من الألف منها سوى بضعة عشر كتكوتاً

وكان فى سرده لهذه الحادثة استقصاءٌ دقيق ، ودرسٌ اقتصادى عميق ، وفكاهةٌ تسرّى عن النفس البائسة كآبتها ، وتميد إلى الأسارير العابسة بشاشتها

ولما زرته فى السنة الماضية مع صديق الأستاذ (الهراوى) فى داره بمصر الجديدة ظننت أنه يمكننى محادثته بشأن كتاكيته ، فلم أصادف من صحته ونشاطه ما يساعد على الكلام فى هذا الموضوع ، وإنما اقتصر حديثنا على وصف المسرة بتلاقينا بعد نحو ثلاثين سنة من تنائينا

والكاظمى ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة من حيث متانة الأسلوب وجزالة الألفاظ ، وربما امتاز عن كثيرين منهم بخلو شعره من المماظلة والتعقيد والأغراب

وكما أنه تفوّق على شعراء زمانه بهذه الطريقة الفحلة نراه امتاز عنهم أيضاً فى أنه يرتجل الشعر ارتجالاً غاية فى السلاسة لا جمجمة فيه ولا تلكؤ . وإذا ارتجله وقع شعره المرتجل فى قالب طريقته الشعرية المطبوعة ، أى إنه مهما طال نفسه فى الارتجال جاء شعره المرتجل موسوماً بطابعه الشخصى ، متقاوداً مستوى

المتون ، لا تشاخُص فيه ولا تفاوت ؛ لا يخذل آخره أوّله ، ولا ينوء عجزه بكلكله ، وهذا موضع الغرابة فى ارتجاله . وربما لايجاريه فى هذه المزية إلا القليل من الشعراء الأقدمين بله المتأخرين من شعراء هذه الأيام

ومن ظريف أخبار بداهته ما اتفق لى معه : ذلك أنه زارنى يوماً فى إدارة المؤيد ، فابتدره زميلى الصحافى المشهور سليم سركيس رحمه الله بالعتب الشديد عليه لأغفاله تهنئته بزيه البلدى الجديد

وكان من خبر هـذا الزى أن (سليماً) تضايق من اللبوس الافرنجى المحزق ولاسيما ياقة القميص المكوى ، وربطة الرقبة (الكرافات) وشطاطها أو بكلتها التى كانت تمنعه الحركة وإدارة رأسه يمنةً ويسرةً وهو يحرر ويترجم والفصل فصلُ الصيف والحرُّ حرُّ القاهرة . فما كان منه إلا أن أعلن هجر ذلك الزى والزراية عليه ، واصطنع لنفسه الزى البلدى : قفطاناً مشدود الوسط بالزنار ، ويحيط أعلى القفطان بعنقه من دون ياقة ولاعرى ولا أزرار ؛ وقد سدل فوق القفطان جبةً بلديةً مخصرة الوسط ، فضفاضة الأذيال ، سهلة الطىّ ، سريعة اللى . وأعلن خبره هذا فى الصحف المحلية مشفوعاً برسمه العربى الأصيل ، وزيه البلدى الجميل ؛ وأخذ إخوانه المحررون — وهم كُثر — يصفون خبره فى صحفهم ، والشعراء منهم يهنئونه بقصائدهم

وكان صديقنا (سليم) تعجبه طريقة الصحافى الأميركى الكبير (برزباين) الذى يتخذ فى موضوعات كتابته من الحبّة قبّة ، فكيف لا يتخذ هو موضوعاً يلذّ المصريين من القفطان والجبّة ؟

وكم مرةً سمعته يقول : إننى أنا الكاتب الصحافى ، وقد تلقيت فن الصحافة من سفرى إلى أميركا ومعاشرة صحافييها . أما زميلاى : (المنفلوطى) و (المغربى) فليسا صحافيين بالمعنى المقصود من كلمة الصحافة : المغربى كاتب عالم ، والمنفلوطى كاتب شاعر

فلما دخل علينا السيد الكاظمى وأسمعه سليم عتبه عليه قال له :

أَلِقْ دواتك واقربْ وخذ أداتك واكتبْ

ثم جعل يرتجل شعراً فى مدح سليم ، ووصف زيه الجديد . عليه عليه وهو يكتب . حتى إذا طال نَفَس القول اعترضتُه أنا قائلاً : أرى أنه سيكون لهذه القصيدة نبأ عظيم بين أدباء القاهرة ، فلمِ لا يكون لى فيها ذكر وأنا ثالثكما وشاهد حادثتكما ؟

فتحوّل الكاظمى عن (سليم) وأقبل علىّ ، وخاطبنى ببضعة أبيات من شعره المرتجل على وزنه وقافيته . ثم عاد إلى إتمام الكلام فى سليم حتى أكمل قصيدة بلغت الثلاثين بيتاً فيما أذكر ، وقد نشرها صديق سليم فى مجلته — سنتها الثانية أو الثالثة — وحكى القصة كما وقعت ، لكنه ذهب إلى اننى إنما اقترحت على السيد الكاظمى أن يذكرنى فى القصيدة امتحاناً له ، واستيثاقاً من أمر ارتجاله .

رحم الله (الكاظمى) وعوضنا الدهر منه ولا أراه فاعلاً

دمشق

المغربى

رئيس المجمع العلمى العربى

شاطئ الأمان . . . هو :

شركة مصر لعموم التأمينات

إحدى مؤسسات بنك مصر

تزيل مخاوفك فى بحر الحياة وتأخذ بيدك الى شاطئ النجاة

تقوم بالتأمين على الحياة

بالتأمين ضد الحريق

بالتأمين ضد أخطار النقل

بالتأمين على السيارات

تعطى ضمانات لأرباب العهد بأحسن الشروط والاسعار

وجميع أنواع التأمينات الأخرى

رأس مالها ٢٠٠،٠٠٠ جنيه مصرى

خابروها بمركزها الرئيسى ١ ميدان سليمان باشا بمصر

تليفون رقم ٤٠٩٦١ – ٤١٢٠٩ – ٤٦٣٨٥